الفصل التاسع
الماء وقصص الأنبياء

فى هذا الجزء سنحاول التعرف على علاقة الماء بقصص بعض الأنبياء، والماء مخلوق من مخلوقات الله مسخر لما أراده الله له، فهو طوع أمر خالقه يأتمر بأمره فيطيع، فيكون تارة وسيلة للعذاب وتارة أخرى وسيلة للرحمة بالعباد.

وسنبدأ بأشهر تلك القصص وأقدمها من الناحية التاريخية، وهى قصة نوح عليه السلام، وهو أحد أولى العزم من الأنبياء. وقصته كما نعلم مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بالماء، ولا نكاد نذكر تلك القصة حتى يتبادر إلى أذهاننا المشهد الرهيب للطوفان الذى أغرق الأرض ومن عليها، إلا من آمن مع نوح وركب معه السفينة من البشر ومن بقية الكائنات التى أراد لها الله استمرار التواجد على الأرض بعد إنتهاء الطوفان. وتلك القصة تدلنا على قدرة الله تعالى وأنه سبحانه إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، فهو وحده القادر ذو القوة والجبروت المنتقم ممن كفر برسالته ونبيه المرسل بالهدى والحق، وهو الرؤف الرحيم، فبمشيئته نجا من كان مع نوح من المؤمنين المصدقين به وبرسالته من ذلك الطوفان الرهيب. ولنبدأ القصة من أولها :

قصة نوح عليه السلام :

بعث الله نوحاً عليه السلام لدعوة قومه إلى عبادة الله وحده بلا شريك والاعتراف له بالوحدانية، ونهاهم أن يعبدوا معه صنما أو تمثالاً، «**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**» (الأعراف آية ٥٩). وقد دعاهم نوح إلى عبادة الله بأنواع الدعوة المختلفة ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، بالترغيب تارة والترهيب أخرى. ولكن كل هذا لم ينجح معهم وظل أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان.وقد ناصبه قومه العداوة وتوعدوه ومن آمن معه بالرجم والطرد، ونالوا منهم وبالغوا فى أمرهم. وأظهروا تعجبهم أن يكون رسول الله إليهم بشراً مثلهم، ورأوا أن من آمن معه هم أراذل الناس وضعفاؤهم فطلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين ووعدوه أن يجتمعوا حوله إذا هو فعل

ذلك، «قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (الشعراء آية ١١١-١١٥). وقد طال الأمد وطالت المجادلة بينه وبين قومه «... فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ» (العنكبوت آية ١٤).

ومع هذه المدة الطويلة لم يؤمن بدعوته إلا القليل، وكانوا كلما انقرض منهم جيل وصوا من جاء بعدهم بعدم الإيمان برسالة نوح ودعوهم إلى محاربته ومخالفة ما جاء به من الحق. وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه أوصاه بعدم الإيمان بنوح أبدا ما عاش، فكانت سجاياهم تأبى اتباع الحق والإيمان بهدى الله، «... وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (نوح آية ٢٧). ولهذا قالوا : «قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ» (هود آية ٣٢، ٣٣)

وأوحى الله لنوح أنه لن يؤمن بدعوته إلا من قد آمن، «وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (هود آية ٣٦). ولما علم نوح أنه لا خير فيهم ولا أمل من إصلاحهم دعا عليهم دعوة غضب فأجاب الله دعوته «وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (نوح آية ٢٦، ٢٧)، فاجتمع عليهم خطاياهم من الكفر والفجور ودعوة نبيهم عليهم. وعندئذ أمره الله تعالى ببناء السفينة «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ» (هود آية ٣٧). وفي آية أخرى نقرأ قوله تعالى «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ....» (المؤمنون آية ٢٦، ٢٧).

وكانت علامة البداية للطوفان الذى أغرق الأرض هى فوران التنور «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» (هود آية ٤٠)، والتنور عند جمهور المفسرين هو وجه الأرض،

والمعنى أنه إذا نبعت الأرض من سائر أرجائها بالماء. وكان أمر الله تعالى للسماء أن تمطر مطرا لم تعهده الأرض من قبل، وكان أمره للأرض أن تنبع بالماء من جميع أرجائها. «فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ» (القمر آية ١٠-١٢).

وزاد الماء على وجه الأرض زيادة لم تعهدها من قبل، فأهلكت المياه كل من كان على سطح اليابسة. وكان من الذين هلكو ابن نوح عليه السلام، ويقال أنه يام (أو كنعان) أخو سام وحام ويافث، وكان كافرا بدعوة أبيه وظن أنه سوف ينجو إذا صعد على قمة جبل مرتفع ليعصمه من الماء، ولكنه كان واهما فعذاب الله إذا جاء لا يمنعه شيء، وها هو القرآن الكريم يحدثنا بخبره فى تلك الآيات «..... وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ» (هود آية ٤٢، ٤٣).

وهكذا استجاب الله تعالى لدعوة نبيه، فأهلك كل من كفر بدعوة الحق، ولم ينج من أهل الأرض جميعا إلا من ركب مع نوح وظلت السفينة طافية على وجه الماء ما شاء الله لها الطفو. وسنجد وصفاً رائعاً لحال السفينة وهى تمخر عباب ذلك الماء الهادر الثائر من حولها، لا يمسكها من الغرق إلا قدرة الله تعالى «وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ .....» (هود آية ٤٢) وقيل أن الله تعالى لى لما أراد إيقاف ذلك الطوفان، أرسل على وجه الأرض ريحا فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض، وبدأ الماء يغيض حتى ظهرت الأرض مرة أخرى.

وكان نوح عليه السلام يرسل الحمامة لتستطلع بروز الأرض، حتى إذا رجعت إليه وفى فيها غصن الزيتون وفى قدميها آثار الطين، علم أن الماء قد بدأ يقل عن وجه الأرض. ثم كانت إرادة الله بأن هبطت السفينة على وجه الأرض على جبل يسمى

الجودى، «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ» (هود آية ٤٨). وهكذا كان الماء هو وسيل العذاب والهلاك لهؤلاء القوم المجرمين، بعكس القصة التالية وهى قصة أيوب عليه السلام، حيث جعل الله فى الماء الذى أنبعه تحت قدميه سر الشفاء من السقم والمرض. وقصته كما وردت فى كتاب الله هى كالتالى :

قصة أيوب عليه السلام :

كان أيوب نبيا من أنبياء بنى إسرائيل، وكان رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه فقد كان يمتلك الأنعام والعبيد والأراضى الشاسعة. وقد شاء الله أن يبتليه بسلب ذلك كله منه، كما ابتلاه فى جسده بأنواع البلاء المختلفة، فلم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه. وطال به المرض حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس وانفض الناس من حوله، إلا زوجته التى كانت تقوم على قضاء حوائجه وتقوم بمصلحته وهى صابرة راضية.

وعلى الرغم من أنواع البلاء المختلفة التى حلت بأيوب عليه السلام، إلا أنه كان صابرا راضيا بقضاء الله لعلمه أن ذلك ما هو إلا ابتلاء من الله عز وجل لعباده المؤمنين، ولم يزد هذا البلاء أيوب إلا صبرا واحتسابا وحمدا لله، حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام.

وكان دعاء أيوب عليه السلام كما جاء فى تلك الآية «**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**» (الأنبياء آية ٨٣)، فاستجاب الله لدعائه وكشف ما كان به من ضر ورد عليه أهله ومثلهم جزاءً له على صبره، «**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ**» (الأنبياء آية ٨٤).

وقد أوحى الله لنبيه أن يضرب الأرض برجله، فامتثل لما أمر به، فأنبع الله له عينا باردة من الماء وأمره أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى والسقم ظاهراً وباطناً، وأبدله الله بذلك كله صحة ظاهرة وباطنة

وجمالا تاماً ومالاً كثيراً. «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ» (ص آية ٤١-٤٣).

وفى تلك القصة نجد أن الماء كان هو وسيلة الشفاء التى أرادها الله تعالى لمعافاة نبيه مما ألمَّ به.

قصة موسى عليه السلام :

رأى فرعون فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من ناحية بيت المقدس فأحرقت دور مصر وأهلها ولم تضر بنى إسرائيل، فلما استيقظ جمع السحرة والكهنة وسألهم عن ذلك، فقالوا هذا غلام يولد من بنى إسرائيل يكون هلاك أهل مصر على يديه. ولذلك أمر بقتل غلمان بنى إسرائيل وترك فتياتهم. ولما شكا المصريون إلى فرعون قلة بنى إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور، أمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وتركهم عاماً. وقد ولد هارون فى عام المسامحة عن قتل الأبناء، أما موسى فقد ولد فى عام قتلهم فلما وضعته أمه اتخذت له تابوتا فربطته فى حبل، وكانت دارها تقع على النيل، فكانت ترضعه، فإن خشيت من أحد وضعته فى التابوت وأرسلته فى النيل وأمسكت طرف الحبل عندها، فإن أمنت عليه استرجعته ولنقرأ تلك الآيات حتى نتتبع بقية القصة : «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (القصص آية ٧-٩).

أما ما حدث بعد ذلك فيمكن تتبعه من الآيات :

«وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » (القصص آية ١٤-٢١).

وبعد ذلك فر موسى إلى مدين خوفا من بطش فرعون به لقتله المصرى، وقضى بها عدة سنوات، وفى طريق عودته إلى مصر كلمه الله فى الوادى المقدس طوى وأرسله إلى فرعون ليدعوه إلى الهدى ويرسل معه بنى إسرائيل، «وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ». (الشعراء آية ١٠-١٩).

وما حدث بعد ذلك نقرؤه فى سورة الأعراف فيما يلى من الآيات : «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» (الأعراف آية ١٠٣-١٢٦).

وبعد ذلك ابتلى الله تعالى آل فرعون بالسنين ونقص الثمرات لعلهم يرجعوا إلى طريق الحق ويؤمنوا بما جاء به موسى، ولم يكن هلاكهم بعد ذلك إلا بعد أن أقام الله عليهم الحجة وأنزل عليهم الآيات لترهيبهم وردهم إلى الحق، كما جاء فى سورة الأعراف: «وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ» (الأعراف آية ١٣٠-١٣٣).

ومن الآيات التى أرسلها الله تعالى على القبط (أهل مصر) الطوفان وهو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار. ففاض الماء على وجه الأرض ثم ركد، فلم يمكنهم من حرث أرضهم أو مباشرة أى نوع من الزراعة. وكانوا كلما نزلت بهم آية طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم ما نزل بهم، «.... قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (الأعراف آية ١٣٤). وكان موسى عليه السلام يدعو ربه ليكشف عنهم ما بهم فلم يكونوا يفوا بما عاهدوه عليه، ولما استمر ضلالهم واستكبارهم عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله، مع كل ما شهدوا من الآيات، أهلكهم الله بالغرق فى اليم، ولنقرأ

الآيات : «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ» (الأعراف آية ١٣٥، ١٣٦).

وقد أوحى الله تعالى إلى موسى أن يهرب ببنى إسرائيل من مصر فرارا من بطش فرعون وعذابه، ولكن فرعون علم بخروجهم فجهز جيشا كبيراً وتبعهم ناحية الشرق حيث ساروا، ولم يلبث أن أدركهم وتراءى له جمعهم. وعندها ظن أصحاب موسى أنهم مدركون وأن لا سبيل لهم للهرب فأمامهم البحر والجبال الشاهقة تحيط بهم وفرعون وجيشه من ورائهم. فشكوا إلى نبى الله ما هم فيه من خوف ووجل وزاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وعندها أوحى الله لنبيه أن يضرب البحر بعصاه فانشق البحر فكان ماؤه قائما مثل الجبال مكفوفا بقدرة الله العزيز الجبار. ويقال أن ريح الدبور قد أُمرت فلفحت طين البحر حتى صار يابساً لا يعلق بسنابك الخيل والدواب، «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ» (طه آية ٧٧-٧٩).

ولما جاوز موسى ببنى إسرائيل البحر، وكان فرعون يتبعه فى جنوده أمر الله تعالى نبيه أن يضرب البحر مرة أخرى بعصاه فرجع البحر سيرته الأولى، وكان أول جيش فرعون يهم بالخروج منه، وبذلك هلك فرعون وجيشه بأكمله ليكون آية لمن يجيء بعده. ولنقرأ الآيات : «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ» (يونس آية ٩٠-٩٢).

وكان هلاك فروعون وجنوده فى يوم عاشوراء ولذلك يحتفل به اليهود كما يحتفل به المسلمون وكان موسى عليه السلام يصوم ذلك اليوم لفضله، وفى الصحيحين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال

لهم : *(ما هذا اليوم الذى تصومونه)*، قالوا : هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً لله فنحن نصومه فقال عليه الصلاة والسلام *(فنحن أحق وأولى بموسى منكم)* فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه.

ويقال أن الفترة بين خروج بنى إسرائيل من مصر بصحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها مع أبيهم إسرائيل أربعمائة وستا وعشرين سنة شمسية، ويقال كذلك أنهم كانوا حين خرجوا نحو من ستمائة ألف من الرجال القادرين على القتال غير الذرية.

وإذا استكملنا قصة خروج بنى إسرائيل من مصر، صادفتنا المعجزة الثانية التى تتعلق بالماء حين طلب بنو إسرائيل من موسى أن يوفر لهم الماء العذب ليشربوا ويرتووا فى هذه الصحراء القاحلة - صحراء سيناء - وكان العطش قد بلغ منهم مبلغه. وأوحى الله تعالى لنبيه أن يضرب الحجر بعصاه فتفجر منه الماء اثنتا عشرة عينا بعدد أسباط اليهود لكي يكون لكل سبط منهم عيناً خاصة بهم ليشربوا منها ويسقوا دوابهم، «**وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**» (البقرة آية ٦٠).

وهذه نعمة كبيرة من نعم الله على بنى إسرائيل، كانت تستوجب منهم الشكر وحسن العبادة، ولكنهم لم يراعوا كل ذلك وكل ما أنزل الله بهم من نعم، فغضب الله عليهم كما نعرف من بقية قصتهم.

قصة نبى بنى إسرائيل :

«**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ**

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» (البقرة آية ٢٤٦-٢٥١)

وقال أكثر المفسرين أن النبى المقصود هو شمويل، والمراد من هذه القصة أن هؤلاء القوم من بنى إسرائيل لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبيهم أن ينصب لهم ملكا يكونون تحت طاعته ليقاتلوا أعدائهم من ورائه وتحت لوائه. فلما كتب عليهم القتال تراجعوا إلا قليل منهم. وقال لهم نبيهم أن الله قد اختار لهم طالوت ملكا عليهم وجعل له آية لملكه عليهم وهى عودة التابوت. ولما اتجه جيش طالوت لمحاربة الأعداء أراد اختبار مدى صدقهم وقوة عزيمتهم وصبرهم على العطش طاعة له واتباعاً لأوامره، فأمرهم بعدم الشرب من النهر - ويقال أنه نهر الأردن - إلا اغترافا باليد إطفاءاً للظمأ وليس للإرتواء. وأمر من شرب من النهر ألا يصحبه فى القتال واكتفى بمن بقى معه من المؤمنين الصابرين. ولما جاوزوا النهر وشاهدوا جيش جالوت وعاينوا مدى قوته وكثرة عدده شعروا أنهم لا قبل لهم بهذا الجيش واستقلوا عددهم مقارنة

بجيش أعدائهم، ولكنهم ثبتوا لعلمهم بأن النصر من عند الله، لا يعتمد على كثرة العدد أو العتاد ولا يناله إلا الصابرون المؤمنون بالله. وكانت نتيجة تلك المعركة أن قتل داود - وكان جنديا فى جيش طالوت - قائد جيش الأعداء وهو جالوت وتم النصر لبنى إسرائيل على أعدائهم.

وفى هذه القصة ابتلاء من الله تعالى لعباده ليعلم مدى طاعتهم وثبوتهم وصبرهم، فمن كانت له القدرة على التغلب على هوى نفسه - كما فى الصيام - طاعة لله واتباعا لأوامره، فهو قادر على الثبات فى تلك الحرب الوشيكة التى تحتاج إلى الصبر والإيمان أكثر مما تحتاج إلى الجنود والعتاد، فقوة الإيمان هى الفيصل وهى الأساس الذى يتم به النصر.